المثالية البرغماتية في الفكر الأمريكي
جوزايا رويس أنموذجا

ذويبي كمال*

إشراف: أد. بوشيبة محمد**

******

إرهاصات المثالية البرغماتية

لم يرغب معظم الفلاسفة البريطانيين والأمريكيين في نهاية العقود الأخيرة من القرن الماضي بقبول المذهب الوضعي، والمذهب التجريبي، والمذهب اللاإرادي، ومذهب التطور الطبيعي، وبحثوا عن تفسير للكون أكثر ملائمة لمطامح الإنسان الروحية، وقدروا ألوان التقدم العظيمة التي حدثت في العلوم الطبيعية وأهمية التصورات الجديدة للتطور. لكن على الرغم من أن الإنسان مع وعيه بنفسه، فإنه لم يخبر بالقصة كلها وقد عبّر "توماس هل جرين" عن ذلك في تساؤله[1]: هل يمكن أن تكون معرفة الطبيعة ذاتها جزءا من الطبيعة أو نتاجًا لها ؟ إذن لا بد من وجود شيء أعلى من الطبيعة الفيزيائية في العالم يستجيب له ذهن الإنسان، ولذلك كان أغلبية الفلاسفة في تلك الفترة مثاليين، فلقد وجدوا في تأصيل كانط والمفكرين الألمان الذين جاءوا بعده، نقطة الانطلاق لتطوير مذاهب تعترف بالمكتشفات الجديدة في العلم، لكنها تتجاوز في الوقت ذاته قصور العلم، وقدموا تفسيرا للواقع أكثر عمقاً وشمولاً مع إفساح مجال كاف للقيمة الروحية، بما في ذلك الحق والجمال والخير والدين.[2]

لقد جاء تغلغل الفكر الألماني المثالي في العالم المُتحدث بالإنجليزية بصورة تجريبية؛ إذ بدأ في النصف الأول من القرن 19 مع الشعراء وكتاب المقالات أمثال "وردورث"و"شيلي" و"كوليردج" و"كارليل"في انجلترا و"رام رسون" ومدرسة كونكورد في الولايات المتحدة، وقد استطاع هؤلاء الرجال أن يفهموا بلاغة المذهب المثالي الرومانسي وحماسته، ويقدموا له تفسيرا أدبيًا، على الرغم أنهم لم يقفوا طويلا عند تعقيدات كانط وهيجل، وبعد ذلك ظهر الباحثون

---

* طالب دكتوراه بجامعة وهران2.

** أستاذ بجامعة وهران2، ورئيس وحدة في مختبر الأبعاد القيمة للتحولات الفكرية والسياسية بالجزائر

Abstract: When the new Hegle's philosophy appeared in America with "Royce" and "Hawking". "Royce" formulated an absolutely perfect philosophy. Indeed ، reality has an absolute mind that is reflected in our minds ، directs individuals ، and gives connotations to experiments. In order to obtain a conception of a continuous world ، it is necessary to recognize that there is an absolute experience that learns all the facts and is subject to them as a general law ، namely God. From this idea the outer world is drawn. The task of logic is to interpret the patterns of the objective systems that have metaphysical and cosmic significance that is manifested in human minds individually.

[1] توماس هل جرين (1832-1882) زعيم الهجليين الجدد في اسكتلندا وانجلترا، هيغلى مثالي النزعة، ألّف كتاباً عن هيوم، ومقدمة في الأخلاق. أنظر، وليم كليرايت: تاريخ الفلسفة الحديثة، ص459.

[2] وليم كليرايت: تاريخ الفلسفة الحديثة، تر: محمود سيد احمد، التنوير للطباعة والنشر بيروت، لبنان، ط1، 2010، ص459

الكلاسيكيون في جامعات بريطانيا عندما أصبح أفلاطون وأرسطو يشكلان جزءًا بارزًا من مناهج الدراسة أمثال "فبنامين جويت" (1817، 1893)، الذي قدر أهمية المذهب المثالي الأماني وتشابهه مع روح البرغماتية، وقد حث هؤلاء على دراسة الفلاسفة الألمان دراسة دقيقة، كما تمّ التنبيه من طرف"ج هـ ستراليج(1909، 1820)، الذي نشر كتابه "سر هيجل" عام 1865 الفلاسفة البريطانيين، إلى قيمة الحركة المثالية الألمانية من حيث أنها وسيلة لدحض المذهب الطبيعي والمذهب المادي والمذهب ألشكي، وبوصفها أيضا تأكيدا للقيمة الروحية للإنسان وكرامته وقام توماس جرين (1882، 1836) وإدوارد (1907، 1835) وجون كيرد (1898، 1820) وآخرون كثيرون بدراسات دقيقة لكانط وهيغل، وأيضا لفلاسفة مثاليين ألمان آخرين مختارين وما اعتقدوا أنه ذو قيمة باقية، وأعادوا تفسيره من جديد بطريقة تناسب عصرهم وبلدهم، وقدم الشباب مثل "فرانسيس هوبرت برادلي" (1924.1846) وبراناد بوزنكيت*(1923.1848) وجيمس ورد (1925.1843) قدم هؤلاء نسخا أكثر أصالة للمذهب المثالي[1].

ورفض الفلاسفة المثاليون البريطانيون في مجال الأخلاق مذهب اللذة ووصفوا الحياة الخيرة بطريقة أفلاطون وأرسطو كانط وهيجل، متجنّبين باستمرار الصورية والتشدّد وأعطوا أهمية مثل هيجل للمؤسسات الاجتماعية، وربما كانوا في مجال الفلسفة السياسية هيجليين في أطوارهم على أن الحرية لا يمكن أن تحقق إلا عن طريق تعاون، وكانوا في الغالب مصرّين مثل "مل" و"سبنسر" على أهمية الحرية الفردية، وأراد وثل "أو" و"نتشه" و"هيجل" أن يتم التعبير عن إرادة الناس بصورة عقلية ومعقولة في إدارة عامة نعززها رغبة في خير عام يكفل للأفراد الحقوق الدينية لأساس الأحرار بما في ذلك الملكية الخاصة التي تكون أساسية للتعبير عن شخصية، وقد أكدوا بصورة أكبر من الفلاسفة النفعيين عل قيمة أعلى من اللذة، وطوروا مذاهب ميتافيزيقية أفسحت مكانا للدين، ودافعوا عن النظريات العضوية في الذات والمجتمع والدولة، لقد اتفقوا بوجه عام مع الفلاسفة النفعيين في تعديم الاصطلاحات السياسية والاجتماعية التي حث عليها لبراليو عصرهم من أجل تحسين أحوالهم وجماهير الشعب.[2]

واستهل في الولايات المتحدة وليم ت هاريس (1835، 1909) وعدد من الأمريكان الأصليين بإضافة إلى المهاجرين الألمان موهوبين بعد 1941، استهل هؤلاء الدراسة المتخصصة للمذهب المثالي الألماني ونشر ترجمان وتعليقات في مجلة فلسفة النظرية ومجلدات منفصلة واكتسحت الحركة المثالية في الكليات والجامعات الولايات المتحدة وكان من بين المناصرين البارزين للمذهب المثالي الوارد حديثا كل من " جورج سلفستر مورس((1840، 1889)، الأستاذ في جامعة

* بوازنكيت (1838-1923) فيلسوف بريطاني، أهم أعماله "المعرفة والواقع"، "المنطق"، "المنطق"، "تاريخ علم الجمال"، "مبادئ الفردية والقيمة". انظر حسن حنفي: مقدمة في علم الاستغراب، الدار الفنية للنشر والتوزيع، القاهرة، ص369.

[1] ولم كليرايت، تاريخ الفلسفة الحديثة، مرجع سابق، ص 461.

[2] المرجع نفسه، ص 460.

جونز هوبكنز وجامعة ميشيغان و"جورج، هـ هوس"(1834، 1916). الأستاذ في جامعة كاليفورنيا و"جورج هربارت بالمر (1842).و"جوزايا رويس" (1855، 1917) و"هيجو منستربرج(1823، 1917) الأساتذة في جامعة هارفارد و" جيمس مادون كريتون "(1861، 1924).و"فرانك تيلي" (1865، 1927) و"ليم أهاموند" (1861، 1938) الأساتذة في جامعة كورنل و"جيمس جوهربن" (1861، 1933) الأستاذ في جامعة برستون ورئيسها السابق و"جورج ترميل لاد"(1843، 1921)، الأستاذ في جامعة بيل و"ماري هوتن كونز"(1863، 1930).الأستاذ في جامعة ولسلي، و"برودن بون" (1847، 1910) الأستاذ في جامعة بوسطن، وآخرون كثيرون، والواقع أن كل أستاذ للفلسفة في الولايات المتحدة كان تقريبا مثاليا في الفترة بين عام(1875، 1900)، وظل الفلاسفة المثاليون بعد ذلك هم الغالبية لمدة عقد أو عقدين، ولا يزال هناك فلاسفة مثاليون كثيرون في الولايات المتحدة حتى بين الشباب وكثيرون ممن لم يصنفوا أنفسهم على أنهم كذلك محتفظين بتصورات مثالية باقية في تفكيرهم[1].

لقد اختلفت صورة المذهب المثالي في نهاية القرن اختلافا ملحوظا، فالجميع يتفق في إفساح مكان الواقع للقيم العليا أكثر مما فعل "مل" و"سبنسر" وفي جعل الروح أكثر أهمية من المادة، وربما كان الشقاق الأكثر أهمية بين الأنصار المثالية المطلقة الذين كانوا جديين ومن أنصار مذهب وحدة الوجود الذين أدرجوا كل الوقائع داخل عقل واحد شامل كل الشمول يسمى ((هذا العقل عادة بالمطلق)) وبين الفلاسفة من أنصار المثالية الشخصية الذين كانوا من أنصار مذهب الكثرة وكانوا عادة مؤلهة وأكدوا تأكيدا كبيرا على فصل الأشخاص الأفارد وعلى قيمتهم الداخلية.[2]

وقد اخترنا "جوزيا رويس" كممثل للحركة المثالية لأنجلو أمريكية لكي نعرض آراءه في هذا المبحث يتوسط مذهبه بين الصور المتطرفة للمذهب المثالي المطلق الذي يقلل من الفردية وبين صور المذهب المثالي الشخصي، التي يؤمن من نقادها بتأكيد مغال فيه على الأفراد على حساب الوحدة وليس "رويس" من الفلاسفة الذين يصعب قراءتهم فهو ممتع ومثير، وهو ليس سطحيا على الإطلاق ولقد كان الفيلسوف المثالي الأمريكي الأكثر تألقا على الرغم من أن بعضا من الفلاسفة المثاليين البريطانيين أمثال "جرين و"برادلي"و " بوزانكيت"، وربما كانوا المفكرين الأشد عمقا فإنهم ربما يبدون للمبتدئين جافين وأصحاب ومصطلحات فنية ليست ضرورية.[3]حيث يعد جوزايا رويس من كبار فلاسفة المثالية في القرن التاسع عشر، وتأتي أهمية فلسفته في كونه حاول التوفيق بين الدين والفلسفة وكذا بين البرغماتية والمثالية باستخدام المنطق ومقولاته خاصة من الناحية القيمية، بحيث عرض فيها مذهباً فلسفياً مثالياً وتطبيقه على

[1] المرجع نفسه، ص 461.
[2] المرجع نفسه، ص 462.
[3] المرجع نفسه، ص 263.

المشكلات الدينية التي تثير التساؤلات الفلسفية المحيرة، وينقسم كتابه الأساسي "الجانب الديني للفلسفة"إلى جزأين يتناول الأول المشكلة الخلقية وطبيعتها والمثل العليا التي نحتك بها في حياتنا اليومية، والجزء الثاني يبحث عن طبيعة الحقيقة الدينية التي تنشر في العالم، وتقدم الضمان لهذه البصيرة؛ فيعرض للنظريات التي تفسر العالم. وينتهي بالمثالية. حيث أن المجتمع الذي نشأ فيه "رويس" كانت تسوده الفوضى إذ يتألف من الباحثين عن الذهب، ومن مستوطنين غلاظ ويائسين، وعند اطلاعه على الفلسفة اطلع على الجدية الهادئة للمذهب المثالي الألماني، من هنا أكد على البقاء الأزلي للقيم في عقل مطلق يشمل الواقع بأسره، والتجربة كلها في وحدة وانسجام لامتناهيين، وثابتين.

الهيجلية الجديدة في أمريكا

بعد نقد الهيجلية الألمانية من الهغليين الشباب في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، عادت من جديد في النصف الأول من القرن العشرين، كرد فعل على الوضعية. ولقد أعطي اسم "الهيجلية الجديدة "للفكر الذي يحيي الفلسفة الهيجلية، الذي بدا في اسكتلندا وانجلترا*، كرد فعل على المادية الطبيعية والتاريخية والوضعية ودفاعا عن الدين والفلسفة التأملية، أما في فرنسا فقد اتحدت مع الوجودية وتم تفسير "هيغل" من خلال فلسفة الحياة ثم امتدت إلى أمريكا. لكن هذه المرة لم يهتموا بالجانب الصوري في جدل "هيغل"، إنما اهتموا فقط بالروح أو ما يطلق عليه هيغل"قوة النفي"، وما سماه"بوزانكيت"حجة"حدوث العالم"، فإذا كان التناقض له حل عند "برادلي"فان لا حل له عند"كروتشه"و"فال". وإذا كانت الهيجلية وسيلة لتبرير الدول الاستعمارية عند"بوزانكيت"، فإنها وسيلة للتصالح بين الطبقات والمجتمع والدولة الفاشية القائمة على الشركات عند"هيرنج"و"جانتليه".

كان "توماس هل جيرين" مثاليا في الفلسفة وليبراليا في السياسة، وكان من رواد الهيجلية الجديدة في انجلترا كان له الفضل في شيوع المذهب الجديد من خلال نشر كتابه عن "هيوم"، فكان بمثابة هجوم على مثالية "هيوم"، ونفعية"مل"، وتطورية "سبنسر"، والمذهب الترابطي "*associationnisme* "في تفسير العقل[1]، فلم يكن مخلصًا لفلسفة"هيغل"، بل أراد أن يؤسس ميتافيزيقا مثالية تضاف إلى العلم الطبيعي مسترشدا في ذلك بهيغل، حيث هاجم المبدأ التجريبي خاصة عند هيوم، والذي أنكر الشيء الواقعي الذي لا يتعرف عليه إلا من خلال الحواس، فالواقعي عند"جرين"هو المتصل بشيء آخر، وهي علاقة لعمل الذهن الذي ليس عبارة عن نتاج إحساسات فقط. كما نجده هاجم أيضا الأخلاق النفعية والوضعية والتطورية

* كان ممثلها في اسكتلندا وانجلتر كلا من "ستريلنج"، "كيرد"، "جرين"، "برادلي"، "بوزانكيت"، "هالدن"و"ماكتجرت"و"تيلور". وفي أمريكا مثلها كلا من"هاريس"و"رويس"و" هوكنج". أما في رويسا فيمثلها"الين"، وفي أيطاليا مثلها "دى سانكتيس "و"جانتليه"و"كروتشه"ونوفي المانيا مثلها "كرونر" و"جونكلز"، وفي بولندا مثلها "بولاند"، وفي فرنسا مثلها كلا من "فال" وكوجيف"و"هيرنج". وكزنو رابطة باسم "الاتحاد الهيغلي الدولي" انظر، حسن حنفي: مقدمة في علم الاستغراب، ص369

[1] محمود فهمي زيدان: وليم جيمس، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، القاهرة، ط1، 2005، ص 135.

عند "سبنسر"، كما نقد التيارات "الغنوصية الإشرقية"*، ودافع عن وجود ذات عاقلة لا تستمد من الحس، فالعقل كلي وشامل ولا يرد إلى اقل منه[1].

ونجد فيلسوفا آخر قد تأثر بالمثالية الهيجلية وحاول قراءتها وهو "بوزانكيت". حيث بدا بفكرة الفرد، فالفرد في مذهبه الشامل العيان، الكلي الحسي، وفيه تتألف المتناقضات، بحيث باستطاعته الاستقلال والاعتماد على الذات، ولا يجد الفرد نفسه إلا في التعالي على الذات وهذا لا يكون إلا من خلال الفن والدين والمجتمع والمطلق، ومن هنا يلتقي "بوزانكيت" مع "كيركجارد"في اكتشاف هذا البعد الغائب في فلسفة هيغل الفردية[2]، كما نجد مثاليا آخر قد هاجم الأخلاق النفعية وهو برادلي" مثلما هاجمها "جرين" وخاصة النزعة النفسية اللانقدية.وبين إمكانية التعبير عن الواقع في صيغ وعبارات ضد النزعة الاشراقية، كما نجده قد تأثر ليس بهيجل فقط، بل أيضا بكانط أي بأصول هيجل المذهبية، فلانتقال عنده من الظاهر إلى الواقع، لا يحتاج إلى نظامين أو الظاهر والشيء في ذاته كما فعل كانط، بل إن الانتقال بينهما من خلال جدل "هيغل" في نسق واحد منظم وهو علم المنطق. وبهذا تكون الهيجلية الجديدة عند "برادلي" محاولة لتطهير الفكر المعاصر من آثار المذاهب الحسية، والنفعية، ومذهب اللذة في التراث التجريبي، حيث قام برفع التيار التجريبي المادي في الوعي الأوربي إلى مستوى أعلى حتى يمكنه من الاقتراب من التيار العقلي المثالي، إلا انه انتهى في الأخير إلى نوع من التصوف الأخلاقي.

أما عند "ماكتجرت" فإن الواقع روح كما هو الحال عند"هيغل"*، فالواقعي مثالي والمثالي واقعي، كما يؤكد لنا أيضا على أن العالم مكون من أرواح، لأن الروح هي العام والشامل للواقع وللإنسان، وأن ما نطلق عليه الزمان والمكان ما هو إلا مجرد ظواهر لحقيقة واحدة ألا وهي الروح، وبالرغم من إنكاره للزمان كظاهرة إلا انه يقرر أن مصير الإنسان هو الخلود الفردي. وانتسب "تيلور" إلى المثالية الهيجلية في سنواته الأولى**، ثم تحول إلى الهيجلية الجديدة دون أن يصوغ مذهبا فلسفيا معيننا، حيث نجده ينتقل من الفلسفة الخلقية إلى الله، كما يجعل أساس الإيمان في الكونيان وفي الشعور وفي الله وفي التجربة الدينية، حيث كان يدافع عن

* اشتقت تسمية الغنوصية Gnosticisme – من الكلمة اليونانية غنوص Gnosis -التي تعني المعرفة الحدسية الباطنية (أو العرفان بمصطلح التصوف الإسلامي) والتي هي أسمى من المعرفة العقلية، وهي خليط بين المعتقدات الوثنية اليونانية والديانتين إليه ودية والمسيحية، كما تعرف بانها فلسفة مثالية تقر بانه لايمكن إدراك العالم، وأن عقل الانسان محدود وليس بمقدوره معرفة ما يتجاوز مملكة الحواس. ونجد ان كانط قد أطلق هذا الاسم على فلسفته المثالية.

[1] حسن حنفي: مقدمة في علم الاستغراب، مرجع سابق، ص 368.

[2] المرجع نفسه، ص369.

* ماكتاجرت (1866-1925) فيلسوف مثالي بريطاني، استاذ في كمبريدج، تشبع بروح هيجل، اهم اعماله "دراسات في الجدل الهيجلي"، "دراسات في الكوسمولوجيا الهيجلية"، "شرح في منطق هيجل"، "طبيعة الوجود". انظر أحمد حنفي: مقدمة في علم الاستغراب، ص368

** تيلور(1869-1925) استاذ فلسفة وميتافيزيقي انجليزي في سانت اندروز من اعماله"عناصر الميتافيزيقا"، "ايمان اخلاقي". انظر أحمد حنفي: مقدمة في علم الاستغراب، ص369

أيمانه باعتباره كاثوليكيا إنجليزيا بالاعتماد على الأسس الفلسفية، كما كان الحال في العصر الوسيط[1].

وفي إيطاليا، كان أول الهغليين الجدد "فرنشسكو دي سانكتيس". والذي قام بتطبيق مثالية هيغل في النقد الأوربي، وأعطى تفسيرا جديدا لعواطف الشعراء ومثلهم وربطهم بالتاريخ المدني لايطاليا، وعلى أكتافه قامت المثالية الايطالية الجديدة في 1900، من هنا ارتبطت الهيجلية الجديدة باليبرالية التي كانت مسيطرة على اليسار الهيغلي، وذاعت الهيجلية الجديدة في إيطاليا عند الليبراليين الخلص أمثال"جيوبرتي"و"روزميني"في النصف الأول من القرن التاسع عشر.كما نجد في إيطاليا "جانتليه"[***]، الذي رفض التمييز الذي اقره "كروتشه" بين العقل النظري والعقل العملي[*]، فالواقع الوحيد هو عالم الفكر، وهو نفسه فعل الخلق وان الطبيعة عبارة عن فكر ميت، وبتصورها تصبح معقولة.والشيء في ذاته يظل كما هو خارج فعل الخلق، وبالتالي ظل"جانتليه نصف كانطي ونصف هيغلي، حيث اعتبر الهيجلية هي إعادة كتابة تاريخ الفلسفة المنطق والفن والدين بصيغة أو بروح هيجلية، من خلال الاعتماد على عملي هيغل الرئيسيين، وهما"ظاهريات الروح"، و"علم المنطق"، أما كروتشه" فقد ظهر في مذهبه بعض الأثر"لظاهريات الروح"لهيغل مع إضافة قسمة كانطية جديدة وهو التمييز بين الفكر والعمل كلحظتين للروح[2].

وفي فرنسا ظهرت الهيجلية الجديدة من خلال الوجودية وفلسفة الحياة عند"هيبوليت"[*].حيث أول فلسفة هيغل على أنها فلسفة حياة في"ظاهريات الروح"، وفلسفة وجود في"عالم المنطق".فهيجل بالنسبة للمحدثين بمثابة أرسطو بالنسبة للقدماء، فانطولوجيا الحياة عند هيغل هو أساس معرفتنا بالوجود الإنساني. كما ظل"ماركس" هيجليا ويحتفظ بعدة عناصر مثالية، ورغم إن الهيجلية ألمانية بلاصالة إلا أنها استطاعت أن تنتشر من خلال الهيجلية الجديدة إلى كل أقطار العالم، بما في ذلك الأقطار الأوربية التي لا تشارك الميراج الألماني ميتافيزيقاه، فهي حسية في انجلترا، وبرغماتية في أمريكا، وليبرالية في إيطاليا، وحيوية وجودية في فرنسا[3].

---

[1] حسن حنفي: مقدمة في علم الاستغراب، مرجع سابق، ص 370.

[***] جانتليه (1875-1870) فيلسوف مثالي أيطالي، اشتغل وزيرا للتعليم ابان حكم موسوليني، تعاون مع كروتشه في نشر مجلد (1875-1870) فيلسوف مثالي أيطالي، اشتغل وزيرا للتعليم ابان حكم موسوليني، تعاون مع كروتشه في نشر مجلد« la critica» اهم مؤلفاته"النظرية العامة للفعل الخالص"، "فلسفة ماركس"، إصلاح الجدل الهيجلي"، انظر حسن حنفي: مقدمة في علم الاستغراب، ص370.

[*] كروتشه (1866-1952) فيلسوف أيطالي، هيجلي النزعة، اهم اعماله"فلسفة الروح"، "المنطق"، فلسفة العمل"، انظر المرجع نفسه ص372.

[2] حسن حنفي: مقدمة في علم الاستغراب، مرجع سابق، ص 372.

[*] جان هيبولي: Jean Hyppolite(1907 – 1968) مفسر هيغل وشارحه، ومترجم"ظاهريات الروح"الى اللغة الفرنسية"اهم اعماله"تكوين وبنية الظاهريات لهيغل"، المنطق والوجود محاولة في منطق هيغل"، "مدخل في فلسفة التاريخ عند هيغل". انظر المرجع نفسه ص372.

[3] حسن حنفي: مقدمة في علم الاستغراب، مرجع سابق، ص 373.

أما في أمريكا فقد ظهرت الهيجلية الجديدة عند»هوكنج" و"رويس"*، فحاول "هوكنج"الجمع بين المثالية والبرغماتية مع اقتراب أكثر من الواقعية أسوة بالواقعية الجديدة في القرن العشرين، كما حاول الجمع بين الاقتصاد الحر والاقتصاد الجماعي من خلال مفهوم "الذات الجماعية" عند "جورج هربارت"أي من خلال التركيز على البعد الفردي فيها، كما انه حاول الجمع بين المثالية الألمانية بطابعها الشمولي والبرغماتية الأمريكية بطابعها الفردي، من خلال طريق ثالث يظهر فيه الله في التجربة الحية كما هو الحال مع "وليم جيمس"، من خلال العودة إلى الاوغسطينية القديمة. و"صاغ رويس" فلسفة مثالية مطلقة، فالواقع حامل لعقل مطلق يتجلى في عقولنا، يوجه الأفراد ويعطي دلالات للتجارب. ومن أجل الحصول على تصور لعالم مستمر منظم لا بد من التسليم بوجود تجربة مطلقة، تعلم كل الوقائع وتخضع لها، باعتبارها قانونا عاما، وهو الله، ومن هنا يتم استنباط العالم الخارجي، ومهمة المنطق عنده هي تفسير أنماط النظم الموضوعية والتي لها دلالات ميتافيزيقية وكونية[1]، ولم يزعم "رويس"مثل"هيغل"استنباط كل مقولات المطلق وتصوراته بطريقة جدلية، بل كان "كانطيا" بدرجة تكفي للتسليم بأن المعلومات التفصيلية عن مسائل الواقع والمبادئ العامة للوصف العلمي تتطلب تجربة حسية بالإضافة إلى مقولات الذهن، بلاضافة إلى أن "رويس" كان يعتقد أن الكون بأسره بما في ذلك عالم الطبيعة هو في حقيقته "كائن حي واحد"، فهو عقل أو "روح واحد عظيم"، حيث يعتقد أن هذا المذهب ليس غامضا ولا خياليا، لأنه نتيجة تفكير دقيق يتفق مع التجربة الفعلية وفروض العلم البشري، واستبدل رويس النظرية التقليدية المتكونة من تعبيرين هما: الذات والموضوع، بنظرية التأويل التي استوحاها من النظرية "البيرسية" للدلالات. ومن خلال هذا البحث سنعرض فلسفة رويس كما تناولها رويس نفسه من منطق وتأويل وولاء وأخلاق، وبرغماتية، ومثالية، وكيف استطاع "رويس" أن يوفق بين هذه المنظومة، وما تحتويه من مذاهب وقيم توفيقا منطقيا. وجمعها فيما يسمى بالمثالية البرغماتية. أو الفلسفة التوفيقية.

ولقد انتهى الكثير من الهجليين الجدد إلى التجربة الدينية أو الصوفية وإنهاء عصر التنوير الذي خرجت منه، فقد كان هيغل تلميذ"كانط" وكان كانط فيلسوف التنوير، وكان "اليسار الهيجلي" ممثلا لعصر التنوير الألماني[2]، يريد إحداث ثورة في ألمانيا مثل الثورة الفرنسية والتي

* هوكنج (1873-1966) فيلسوف مثالي واستاذ فلسفة بجامعة هارفارد، اهم اعماله"معنى الله في التجربة الانسانية"، "العناصر الثابتة في الفردية""، انظر، حسن حنفي: مقدمة في علم الاستغراب، ص374.

[1] حسن حنفي: مقدمة في علم الاستغراب، مرجع سابق، ص 374.

[2] الهيغليين اليساريين أو الهيغيليين الشبان: اتجاه مثالي في الفلسفة الألمانية في ثلاثينات وأربعينات القرن التاسع عشر. حاول الهيغيليون الشبان الخروج بنتائج راديكالية لإثبات ضرورة الإصلاح البرجوازي في ألمانيا. وكان زعماء ذاك الاتجاه: دايفيد ستراوس الأخوة باور ماكس ستيرنر وآخرون. ولوقت ما انضم فيورباخ وكذلك ماركس وانجلس في فترة شبابهم إلى الهيغيليين الشبان. وانفصل ماركس وانجلس فيما بعد عنهم وانتقدوا الفحوى المثالي والبرجوازي الصغير للاتجاه في "العائلة المقدسة" (١٨٤٤) و"الايديولوجيا الالمانية" (١٨٤٥–١٨٤٦). أما مفاهيمه فكانت حتى ذلك الوقت ما تزال مفاهيم هيغلية – نسبة إلى هيغل –

كانت فاشلة بعودة الملكية إليه ا. وقد استمرت قوة الدفع الهيجلية في تيار الهيجلية الجديدة، في القرن العشرين، حتى انه يصعب التميز بين بدايتها في القرن التاسع عشر وبين نهايتها في القرن العشرين، نظرا لارتباطها بالهجلية خاصة وبالمثالية بوجه عام.

تصنيفات المثالية

يمكن تحديد مفهوم المثالية بأربعة أنواع: المثالية العملية والمثالية النظرية، المثالية التأملية والمثالية الذاتية، ولكل من هذه الأشكال فروع سنأتي على ذكرها وذكر روادها ومؤسسيها، والذي يهمنا في بحثنا هي المثالية النظرية التي تعتبر بمثابة التفكير الفلسفي بمعنى الكلمة، وكل فلسفة هي مثالية بما في ذلك التي يطلق عليها الفلسفة الواقعية، لأن المثالية ليست محتوى أو نظرية فلسفية خاصة، وإنما هي تعبير عن الصورة أو التطبيق الكلي الذي يطرح نفسه في عملية تكوين الوجود الواقعي، وبالتالي فالمثالية نظرية تعبر عن مسيرة يتنقل فيها الفكر من لحظة واقعية إلى أخرى مثالية، ويمكن القول أن المثالية النظرية تمر في تاريخها بثلاث لحظات: مرحلة المثالية الأنطولوجية (الوجودية)، ومرحلة المثالية الذاتية، ومرحلة المثالية المطلقة(التأملية). وسندرس هذه المثاليات لما لها من تأثير كبير وعميق في فلسفة "رويس" المثالية، أيضا وكيف كان لها الأثر الكبير في تكوين فلسفته وكذا تأثره بمؤسسيها وروادها، وأصناف المثالية كالآتي:

أ. المثالية الأنطولوجية (الوجودية):

وهي التي توحد بين الفكر والوجود في الوقت الذي تميز فيه بين وجود الفكر وفكر الوجود، وتعتبر الفلسفة الأفلاطونية أفضل ما يمثل المثالية الوجودية لأنها ترفض إعطاء صفة الوجود الحقيقي للعالم الحسي، حيث ترى أن الوجود الحقيقي هو وجود عالم الأفكار، فالوجود لا يمكن أن يكون موضوع للفكر طالما أنه يمثل وجود الواحد "l'un" وفقا لتصور (بارمينيدس)، بينما يمكن له أن يكون موضوعا للفكر إذا مثل الوحدة المعينة المختلفة في ذاتها عن طريق فكره الخالص، وهذا الفكر الخالص هو الذي يؤسس على سبيل المثال العلاقات المنتظمة التي كان أفلاطون قد قام بتحليلها في محاورة السفسطائي بين مثاليات الوجود والسكون والحركة[1]، كما تشير الواقعية لأرسطو بالنسبة إلى الواقع التجريبي، مع التأكيد على مشاركة العالم الحسي في العالم العقلي حيث لا يمكن للعالم الحسي أن يتقهقر إلى مجرد عدم في المثالية وتشكل المثل في نظر أفلاطون أهراما يتربع على قمتها مثال الخير، وهذه المثل علة وجود الأشياء وشرط معرفتها وأصل ماهيتها وهنا تكتسب مثالية أفلاطون طابعا غائيا ذلك أن الخير عنده ليس مجرد علة أسمى للوجود بل وغاية له في الوقت نفسه.

مثالية. وفي برلين انضم إلى حلقة "الهيغليين اليساريين" (١) (برونو باور وغيره) الذين كانوا يحاولون أن يستخلصوا من فلسفة هيغل استنتاجات إلحادية وثورية"، انظر حسن حنفي: مقدمة في علم الاستغراب، ص374

[1] يوسف حامد الشين: مرجع سابق، ص 26.

ب. المثالية الذاتية:

هذه المثالية تمثل جيدا حالة فلاسفة اللاهوت الذين يعرفون الوجود جيدا على أنه صفة مطلقة كفكر أو عقل، ويؤكدون تعالي هذا الفكر، وحالة "الكوجيتو الديكارتي" أفضل ما يوضح لنا تجاوب المثالية الذاتية مع التفكير العلمي الناتج عن مضمون التأمل الفلسفي، فعبارة أنا أفكر التي تمثل فيها الوجود أول حقيقة متعارف عليها فهي تطرح نفسها لعنصر عقلي لمن يقوم بهذه العملية ويعتقد محللو الفلسفة أن الفلسفة الديكارتية"*le cartésianisme*" يمكن اعتبارها فلسفة مثالية انطلاقا من فكرة الكوجيتو التي اعتبر فيها الفكر حقيقة فاضت عنها بقية الحقائق.

وقد اتخذت المثالية الذاتية شكلا متطرفا عند (بركلي) *Berkeley* ليس لأنه أنكر في كتابه اللامادية *immatérialisme* وجود عالم خارجي مستقل عن الذات، بل لأنه كرس كل جهده من أجل التأكيد على أهمية الذات كمصدر أول للأفكار، وكلمة وجود عند "بركلي" تعني المدرك أو الأفكار، وإذا كنا قد تعودنا أن نضع عن طريق التفكير الأشياء خارج أفكارنا فهذا لأننا نحاول شرح وجود تعيينات كليه في أفكارنا للآخرين، هذه الواقعية في فلسفة "بركلي" المفرطة في الذاتية هدفها الأول إنكار وجود الأفكار المجردة في الواقع وعلى رأسها فكرة الجوهر المادي الذي قال به رجال العصور الوسطى وعليه فإن النظرية الواقعية لسلبية الموضوع العارف عند " بركلي" هي الله الذي يتحدث إلينا عن طريق الأفكار، ونجد فيلسوف آخر تأثر كثيرا بفلسفة"بركلي" وهو "دافيد هيوم" والذي نقل تأثيره إلى "ايمانويل كانط" عن طريق نقد فكرة السببية، الأمر الذي جعل هذا الأخير يصرح في كتابه (مقدمة لكل ميتافيزيقا مقبلة) قائلا: "إن هيوم أيقظني من سباتي العميق".[1]

والمثالية الكانطية تمثل نقلة نوعية من المثالية الذاتية إلى المثالية الواقعية وهي تمهد لظهور المثالية التأملية أي مثالية هيجل المطلقة وقد أطلق على مثالية كانط بالمتقابلة أو المثالية النقدية، حيث يرى كانط أن شروط إمكانية الخبرة بصفة عامة هي شروط مواضيع التجربة وهذا هو وجه الذاتية الذي يمثل عقل الموضوعية أي الوجود نفسه، وتعتبر مثالية كانط حركة دائرية أي مثالية ذاتية تولد عنها واقعية شرفية على اعتبار أن الفكر عند كانط يميز في ذاته بين إرادة العقل الحرة وعملية انتقاله للحسيات، وبهذا التناقض الداخلي تربك هذه الواقعية للوجود مثالية الوجود وهي المثالية التي استخدمها "فيشته" Fichte ومن جاء بعده لإلغاء نقيضها سواء بتأويلها تأويلا يقترب من عقلية كانط أو كما فعل فيشته بأبطال أي تأويل لها ناتج عن تحريفات لكتابات كانط تتعارض مع وجود الفلسفة الكانطية أي المثالية الذاتية،

[1] يوسف حامد الشين: مرجع سابق، ص 30، 31.

فعندما تعمق فيشته في المثالية الدينية اكتشف في القلب فكرة «الأنا» le moi الذي يعتبرها المصدر المتناهي للحياة اللانهائية فقد جعل التناقض والتضاد داخل الذات وحدها، فأهمل الطبيعة فأصبحت فلسفته ذاتية لا علاقة لها بالواقع، هذا النقص في فلسفة "فيشته" حاول كل من "شلينغ" و"هيجل" فيما بعد استكماله كل على طريقته الخاصة.

ج. المثالية المطلقة (التأملية):

المثالية التأملية هي المثالية المطلقة التي تعتمد على فكرة الروح المطلق *l'esprit absolu*، إنها مثالية هيجل ومن المعروف أن المثالية المطلقة تمثل المركب *la synthèse* من المثالية الذاتية لفشته والمثالية الموضوعية شلينغ التي تحاول استكمال نقص فلسفة فيشته ببناء فلسفة الطبيعة التي يوضح فيها كيف تكونت العلة في الموضوع من خلال عملية تطور مثالي لان الأساس في العلة والمعلول في الطبيعة ملتحمان في وحدة غير قابلة للاختلاف، إن الفكر الفلسفي أصبح عميقا في مذهب شلينغ ولم يستطع أن ينتج حركة للوجود قائمة على جدل التضاد كما هو الحال عند هيجل.[1]

إن تحليلات المثالية الهيجلية تختلف تمام عن سابقاتها لأن هيجل يرى أن فلسفته جاءت لسد النقص في الفلسفات السابقة والمثالية منها على وجه الخصوص، فقد هرب هيجل من فكرة (الشيء في ذاته) المشبوهة بتوحد العقل الوجود، إذا لم يعد عند هيجل وجود للفيزيقا والميتافيزيقا، بل أصبحت مثاليته أن صح القول فيزيقا وانتروفيزيقا، وكانت عبقرية هيجل متمثلة في مفهومه للفكر على أنه يشمل الوجود برمته في صورة وحدة الوحدة والاختلاف. وقد رفت المادية الجدلية (الماركسية) فكرة هيجل القائمة على حقيقة الوجود مع ذلك عشقت النهج الجدلي الهيجلي.

ومجمل القول أن الفلسفة المثالية عي الفلسفة العقلية الكلية التي ترى أن الواقع أن لم يكن منبثقا عن الفكر ومعتمد عليه في وجوده فهو على أقل تقدير مرتبط به، وتختلف المذاهب المثالية بين متطرف ومحافظ ومن المتطرفين نجد المثالية الذاتية لباركلي التي أنكرت الوجود المادي خارج الذات وأصبحت تسمى بلامادية، أما المثالية المحافظة فنجدها عند أفلاطون الذي أقر بوجود عالم الحس، وإن كان يراه في درجة أدنى من درجة عالم المثل، ثم عند كانط الذي ترى مثالية بوجود العالم الخارجي كشريك للعالم الفكر في مجال المعرفة.[2]وفي أمريكا ظهرت أيضا محاولات للتوحيد بين التيارين الاجتماعي والسياسي على يد "رافاييل" فقد أول الجمع بين العقلانية والواقعية، فأهمية العقل ترجع إلى أنه مطبق في ميدان وليس عقلا فارغا ؟، كما حاول "كولكنز"إقامة مثالية موضوعية مثل "رويس"مثلها مثل "الشخصانية المطلقة"،

[1] المرجع نفسه، ص 37.

[2] يوسف حامد الشين: مرجع سابق، ص 39.

وتأسيسها في "الجيشطالت"[1].من خلال هذا التحليل الموجز للمثالية يمكن القول أن الروح والنفس والعقل ثلاث مسميات لعائلة واحدة، فالروح موضوع للاماديات والإلهيات، والنفس وظواهرها موضوع لعلم النفس بشتى فروعه، والعقل موضوع المنطق منطق الوجود.

وتستعمل هذه المثاليات السابقة* في فهم مثالية "رويس" البرغماتية في بحثنا هذا، وبالتالي فإن فكرة الجماعة الكبيرة فجرت مشاعر في الأرض الأمريكية وهي التي أعطت لمثالية رويس المطلقة بعدها الأمريكي اللاتعقلي اللاازدواجي فـ(الأنا) هي طبعا في جماعة كبيرة ولكنها لاتوجد ألا من خلالها في هذه الجماعة الكبيرة والتي هي جماعة دينية حتما في كيانها الأعمق لكنها منطقية رياضية في تعبيرها.وفي الواقع استعار رويس محاجته من المنطق الرمزي المنبثق عن بيرس، والذي طوره بنفسه بفرح كبير كعلم مستقل ليدافع عن الذرائعية المطلقة لروح الجماعة الكبيرة، لذا فإن فلسفته هي فلسفة أمريكية نموذجية: دينية منطقية وذرائعية.. إن أنواع المثالية المذكورة آنفا هي عينه من المفاهيم المثالية كما استخدمت في مجالي الفلسفة والميتافيزيقا لكن استخدام هذه المفاهيم لم يقتصر على هين المجالين فقط بل تعداهما إلى مجالات أخرى كعلم الجمال والأخلاق والسياسة وغيرها، ففي علم الجمال استخدم المفهوم المثالي لكي يعبر عن رفض إعادة إنتاج الأشياء والطبيعة كما هي، منطلقا من أن الفن يجب أن يرتكز على مفهوم للجمال أولا.و في مجال الأخلاق يؤكد هذا المفهوم على أن إصلاح ما فسد في طبيعة المجتمعات يجب أن ينطلق من مبادئ فكرية عامة وسامية تشكل مثالا للأفراد وعدم الرضوخ لسحر الأشياء المادية وبريقها.أما في السياسة، فقد ارتبط المفهوم المثالي بتصور أشكال من التنظيم السياسي للمجتمعات غير قابلة للتطبيق كجمهورية أفلاطون أو المدينة الفاضلة للفارابي أو " يوتوبيا " توماس مور.

د. مثالية رويس المطلقة:

عندما ظهرت الهيجلية الجديدة في أمريكا عند "رويس" و"هوكنج"ن صاغ رويس فلسفة مثالية مطلقة، فالواقع حامل لعقل مطلق يتجلى في عقولنا، يوجه الأفراد، ويعطي دلالات للتجارب. ومن أجل الحصول على تصور لعالم مستمر منظم لابد من التسليم بوجود تجربة مطلقة تعلم كل الوقائع وتخضع لها باعتبارها قانونا عاما، وهو الله، ومن هذه الفكرة يتم استنباط العالم الخارجي، فمهمة المنطق هو تفسير أنماط النظم الموضوعية التي لها دلالة ميتافيزيقية وكونية، فالواقع كله عقل مطلق وشامل، يتجلى في العقول البشرية على نحو فردي[2].

[1] حسن حنفي مقدمة في علم الاستغراب، مرجع سابق، ص469.

* هناك نوع أخر من المثالية عرف عن الفلاسفة المعاصرين يسمى المثالية الظاهراتية او ظواهرية إدموند هوسرل، بحيث ترد معرفة واكتشاف جواهر الأشياء والمفاهيم إلى الحدس، فالتجربة لا تصلح إلا لإيضاح طبيعة هذه الجواهر

[2] حسن حنفي: مقمة في علم الاستغراب، مرجع سابق ص382

واعتبر "رويس" المثالية التي ظهرت في نهاية القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر نتاج أمرين: الأول الفلسفة الكانطية والمشكلات التي أثارتها حول طبيعة الأنا وصلته بالذوات الأخرى، وحول الطبيعة وكيف تناولها "كانط" بوصفها عالم الظواهر، فلا تفسر فلسفته الطبيعية الظواهر وسبب وجودها على الصورة التي وجدت عليها، الأمر الثاني: الظروف الإجتماعية التي سادت هذه الفترة، وسقوط مؤسسات كان يعتقد أنها أشياء في ذاتها فبدت مجرد ظواهر، زيادة النزعة الفردية وفي الوقت نفسه ظهور ما يسمى بروح الجماهير، والاتجاهات الثورية الثقة بالإيمان العقلي ورفض كثير من اللاهوت التقليدي، اعتبر "رويس" أن حدوث الثورة أدى إلى تأصيل مفهوم أن العقل قادر على التعبير والتحكم في الوقائع ووضع الخطط التي تتحكم في سير الطبيعة وظواهرها، وهناك إمكانية لأن يمارس العقل دوره في إعادة تشكيل المؤسسات الدينية والسياسية، طالما أن المقولات الفكرية هي المسئولة عن فهم العالم[1]، فحاول رويس تقديم تأويل للفلسفة الحديثة، تجعلها فلسفة مثالية خالصة أو تجعل روحها مثالية ثم اتجه إلى تأويل المثالية ذاتها، على أنها حدس ديني خالص، قادر على تحقيق معرفتنا بالله، وتقديم العون الديني لنا، فالواقع حامل للفكر والعقل مطلق شامل يتجلى في العقول الفردية، ومن اجل الحصول على علم ثابت وتصور منظم لعالم مستمر منظم لا بد من التسليم بوجود تجربة مطلقة[2]، كما أن التعبير الأول للمثالية الرويسية هي الترجمة بعبارات "ماورائية" لأن "رويس"كان يعتقد بالأزلي والمطلق والإلهي، حيث يكون الأفراد هم الأجزاء بالنسبة لهذا المطلق، وقد أخذ هذا الاعتقاد من أمه، التي كان بالنسبة لها يعني جماعة مسيحية، وجسم متزهد للمسيح والناس هم الأعضاء، حيث برهن رويس على هذا المطلق في كتابه الجانب الديني للفلسفة[3]، فالفرد له علاقة بالمطلق عن طريق مشاركة التجربة الفردية مع التجربة المطلقة وفهم الإنسان لهذه المشاركة، والمنطق هو وسيلة هذا الفهم، ولما كانت علاقة الإنسان بالواقع هي علاقة عقل بعقل فالمنطق هو أفضل آلة لفهم صلة العقول ببعضها البعض وتفسيرها، والواضح من مؤلفات رويس أنه حاول تأويل الفلسفة الحديثة على نحو مثالي، ثم تأويل المثالية على أساس أنها حدس ديني حيث تظهر لنا مثالية رويس مطابقة للهجلية في البحث عن الروح ثم تحويل الروح إلى علم المنطق.[4]

ومذهب رويس يعتبر هيجلية جديدة حيث يقبل الأحادية والفردية أيضا، ويحاول التوفيق بينهما، فيقول من الجهة الواحدة إن طبيعة الفكر تقتضي المطلق، إذ أن الفعل الأساسي للفكر هو الحكم، ولا قيمة للحكم إلا إذا افترضنا فكرا أكمل من فكرنا حاصلا على موضوع الحكم ومنزها عن التساؤل والشك الذين يستدعيان الحكم، ومنه فلا حقيقة إلا إذا كان هناك

[1] http: //www. alkhaleej. ae/alkhaleej/page/37718cb5-181a-4429-b62c-d49c1a7b31aa

[2] جوزايا رويس الجانب الديني للفلسفة، تر: احمد الانصاري، المركز القومي للترجمة، القاهرة، ط1، 2009، ص 11.

[3] جيرار ديلودال: الفلسفة الأمريكية، مرجع سابق، ص256.

[4] حسن حنفي: مقدمة في علم الاستغراب، مرجع سابق، ص383.

"أنا"واحد يتضمن كل فكر وكل موضوع، ويقول من جهة أخرى إن مذهب المطلق يعتمد على مقتضيات العقل هذه لكي ينكر يقين الحياة العملية بأفعالها وآلامها، فالمطلق كلي ناقص يتكامل على الدوام بأن يترجم عن ذاته بأفراد يصنع كل منهم مصيره بحرية، فحياة هذا الأنا المطلق قائمة على معرفة الأفراد الذين يحققونه على التوالي، أي أن "رويس" يؤوله للمجتمع ثم يجعل منه موضوع دين يفرض على كل فرد الإخلاص التام للجماعة، مع الإبقاء على الاستقلال الفردي[1].

إن ما قام به رويس هو محاولة فهم أطروحات الفلاسفة لاسيما المثاليين باعتباره ممثلا للمثالية المطلقة بغية اظفاء الروح الأمريكي البرغماتي عليها ليبلغ ذالك التوفيق قمته في الجمع بين المثالية، والبرغماتية فالمعروف أن البرغماتية بوصفها فلسفة العمل تعد امتدادا للتجربة الانجليزية ولفلسفات الواقع والتجربة الحسية حيث حاول رويس إثبات أن ما جاء في كتاب وليم جيمس (مقولة البرغماتية) هو امتداد للفكر المثالي كما نشير أنه لم يكتفي بهذا بل حاول إدخال تعديلات على الفلسفة المثالية الألمانية فقد جاءت مثاليته جمعا وتأليفا واستمرارا لأفكار وروح المثاليين الألمان حيث يظهر لنا رويس العالم باعتباره نظاما أخلاقيا كما جاء عند "فيخته "، ولا يعرف الأنا نفسه إلا من خلال الآخرين مثلما كان عند "شلينغ"، وجاء مطلقه جامعا بين معقولية "هيغل" وإرادة "شوبنهور"، وفي الوجود ناقش علاقة الفكر والواقع والذات والموضوع كما فعل المثاليون، وفي المعرفة جاءت الذات أساسا لها وطور المنهج الجدلي الهيجلي فأصبح تأويلا من خلال فلسفة التأويل عنده، ووضع جدلا للمقولات أشبه بالمقولات الكانطية، وإن كانت أكثر إكتمالا منها، وفي الأخلاق جاءت البصير الدينية أقرب للواجب الكانطي، وفي تفسير وجود الشر اقترب من "هيجل" وإن كان قد سلك طريقا مختلفا في البرهان واقترب"رويس"من"برغسون"في أن الانفعال مصدر الأخلاق[2]، وبالضبط في الإعجاب بأخلاق الولاء[3].وقدم رويس بعض الادلة على مثاليته المطلقة في سياق فلستفه، حيث أكد أن الفلاسفة المثاليون خاصة أصحاب التيار الهيجلي أو المطلق قضيتهم على خط واحد من الأدلة، بل جدارة فلسفتهم إذا ما أخذت ككل، ومع ذلك لم يقد "رويس" أمثلة أو أدلة محددة، فيعتقد أنه من المستحيل التفكير في العالم، بمعنى مادي أو واقعي، لأنه وجد في البداية مستقلا عنها، ثم قام بإنتاجها بعد ذالك، كما أن لرويس أدلة أخرى مثل أن العالم والعقل مرتبطان ارتباطا عضويا، أي لا يمكن أن نأخذ احدهما بمعزل عن الأخر، فإذا كانت أفكارنا عن المادة صادقة فلا بد أن تكون مثل المادة، "وان تكون المادة بذاتها عقلية بمعنى ما"[4]. وفي جعبة"رويس" مجموعة من الردود الجاهزة على الانتقادات التي قدمت للمذهب المثالي، فإذا كان هناك

[1] يوسف كرم: تاريخ الفلسفة الحديثة، دار المعارف، ص424.
[2] برغسون منبعا الاخلاق والدين، ت، سامي الدروبي، الهيئة المصرية للتأليف، القاهرة، 1981، ص24.
[3] أحمد الأنصاري الجانب الدين للفلسفة، مرجع سابق، ص 12.
[4] وليم كلي رايت: تاريخ الفلسفة الحديثة، مرجع سابق، ص 467.

اعتراض يقول أن المذهب المثالي مذهب تمثيلي، فإن "رويس" يرد على ذلك بأن كل فلسفة لا بد أن تكون تشبيهيه بمعنى أو بآخر. فالقول بأن الحقيقة النهائية للواقع عبارة عن مادة أو قوة يعنى جعلها مثل إحساساتنا العضلية في بذل الجهد والمقاومة، فهو قول ليس أقل في نزعته التشبيهية من القول بأن الكون يشبه ذواتنا، وكما يقول "رويس" فأي مماثلة تبدو أكثر معقولية من أن نشبه الكون بشيء هزيل مثل الإحساس، أو أن نشبه بما هو أكثر شمولا واتساعا من تجربتنا أي الذات، أما عن النقد الموجه للمذهب المثالي بخصوص القول بأن العالم ذاتي، وغير حقيقي، ولا قوام له، والوقائع الصلبة تواجهنا من كل ناحية وليست مجرد أفكار، فيرد "رويس"بالقول بأن الأفكار يمكن أن تكون صلبة هي الأخرى ولا تلين، حيث يصوغ لنا مثال فيقول بأن مبادئ الرياضيات والمنطق، هي مجرد أفكار، وليست موضوعات فيزيائية، لكنك لا تستطيع أن تغيرها، فبعض الناس قد تكون لديهم مهارة وجرأة كافية لتسلق الجبل، يفترض حتى الآن انه لا يمكن تسلقه،لكن لن يكون باستطاعة أحد أن يجعل مجموع اثنين واثنين يساوي شيئا آخر غير أربعة، ومنها يرى "رويس"أن بعض الأفكار أشد صلابة وشدة مما نعرف[1].

كما لا يؤمن"رويس" بفكرة "توالد الأفكار"[2]، فلو نفرض من عندنا مثلا أن شخصان طلبا منهما إدراك موضوع واحدا بدون أن يتفقا في طبيعته، فيعتقد الأول مثلا أن نافذة الغرفة مصنوعة من البلوط الصلب، بينما يعتقد الثاني أنها مصنوعة من الصنوبر، فلكل منهما عقل خاص في حقيقته، ولا يستطيع أي منهما أن يدرك بصورة مباشرة أفكار الأخر، بالرغم من أنهما يدركان موضوعا مشتركا وهو "النافذة"، فهما لا يختلفان حول فكرة موجودة في ذهن كل منهما، بل حول المكتب الحقيقي، وبالتالي فلا بد من وجود الشخص الأول والثاني والنافذة في عقل مشترك أي"المطلق".وبالتالي فالنافذة الحقيقية هي التي يدركها المطلق، لأنه الوحيد الذي تلتقي فيه انطباعات كلا الشخصين الخاطئة التي تصحح بالمطلق وقس على ذلك على جميع الحالات الأخرى.

إن إصدار حكم عن واقعة معينة أو مبدأ نظري يتضمن افتراض عقل مطلق يعرف الحقيقة، وإلا فلن يكون هناك معيار نحكم به على الإطلاق، فإذا قلت أن هذا الفعل صواب أو خاطئ، فانك لا تعني انه صواب أو خاطئ من وجهة نظرك فحسب، ولكنه صواب أو خاطئ بالنسبة لعقل يعرف الحقيقة المطلقة.وحتى إذا أنكرنا فلسفة "رويس" وقلنا أنه"ليس هناك مطلق"، فانه علينا أن نسلم بأن هناك موجودا مطلقا، لأننا عند نصدر حكم خارج ذات المرء، فانه حتى الإنكار، يتضمن الإشارة إلى ذات ما أكبر، وهكذا نجد أن الشك في المطلق أو إنكاره، حتم علينا تأكيد وجوده[3].

[1] وليم كلي رايت: تاريخ الفلسفة الحديثة، مرجع سابق ص468.
[2] المرجع نفسه، ص 468.
[3] المرجع نفسه، ص 469.

لم يزعم "رويس"مثل"هيغل"استنباط كل مقولات المطلق وتصوراته بطريقة جدلية، بل كان "كانطيا" بدرجة تكفي للتسليم بأن المعلومات التفصيلية عن مسائل الواقع والمبادئ العامة للوصف العلمي تتطلب تجربة حسية بالإضافة إلى مقولات الذهن، حيث أن بعض المبادئ العامة عن طبيعة الواقع يمكن البرهنة عليها "قبليا"، أي أن هناك قضايا لا يمكن إنكارها دون أن نفترضها بصورة غير متسقة في فعل الإنكار نفسه. من هنا نستطيع أن نتأكد بصورة مطلقة من الذات المطلقة وبعض مسائل الميتافيزيقا، والمنطق، والأخلاق، ويسلم "رويس" بأنه يجب أن نعتمد على الملاحظة والتجربة بالنسبة لبقية المعرفة[1].

برغماتية رويس المطلقة:

كان "ر ب بيري" (Perry. B.R) يقول من خلال مقارنته بين جيمس ورويس في مقاله مناجاة وليم جيمس" بأن جيمس أمريكي مقتلع من جذوره بثقافة أوربية، فصل رداء فكره في النسيج الأمريكي وخلق نموذجا أمريكيا جدي، في حين أن " رويس" متجذر في الحياة الأمريكية أعار فلسفته إلى صناع يتبعون الموضة الأوربية القارية".[2] إذا كان صحيحا أن نقول من خلال استعارة "بيري"، أن النسيج لفكر رويس أي "مثاليته المطلقة" هو من استيراد أوروبي، فإن الثوب قد خيط على المقاس لأجل أمريكا بيد فيلسوف أمريكي، ففكرة الجماعة الكبيرة هي التي أعطت لمثالية رويس المطلقة بعدها الأمريكي اللاتعقلي، اللاازدواجي، الذرائعي مع حمايته من الأحادية التي أفسدت بشكل كبير أشكال المثالية، وأيضا بعض أشكال الذرائعية.و"الأنا" هي طبعا في وسط الجماعة الكبيرة ولكنها لا توجد إلا من خلالها، ولا تقاس حقيقتها بفرديتها الزمنية ولكن بالواقع الأولي للجماعة الكبيرة. وهذه الجماعة الكبيرة تعتبر جماعة الباحثين حول "بيرس" أنموذجا[3]. والتي هي جماعة دينية حتما في كيانها الأعمق لكنها منطقية رياضية في تعبيرها. وفي الواقع استعار رويس محاجته هذه من المنطق الرمزي المنبثق عن بيرس، والذي طوره بنفسه بفرح كبير كعلم مستقل ليدافع عن الذرائعية المطلقة لروح الجماعة الكبيرة، لذا فان فلسفته هي فلسفة أمريكية نموذجية أي دينية، منطقية، ذرائعية.

ولما كانت آثار فلسفة رويس تبدو واضحة في جانب، كانت هناك في الجانب الأخر ما ينبئ عن فلسفة أمريكية قوية موحدة في أمريكا وهي على التحديد الفلسفة البرغماتية، فضلا عما كان لهذه الفلسفة من الأثر العظيم في تعزيز فلسفة "رويس" والطفرة التي قفز بها في فكرته المثالية عن الواقعية.[4] إذن فلسفة " رويس" هي فلسفة أمريكية نموذجية دينية منطقية ذرائعية وسنتناولها عبر مراحل بحثنا بالتفصيل.

---

[1] المرجع نفسه، ص 469.

[2] *John Medermott. the basic writing if Josiah Royce (Chicago. The (92) imicrersity if Chicago press. 1969) vol 1: p: 14 :*

[3] جيرارد دبليو دال: الفلسفة الأمريكية، ت جور تورة، إلهام الشعراني، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، د ت ط، ص 148، 249.

[4] بيتر كاز: تاريخ الفلسفة في امريكا خلال 200 عام، مرجع سابق، ص 255.

ومذهب "رويس" يعتبر هيجلية جديدة لأنه يقبل الأحادية ولكنه يقبل الفردية أيضا، ويحاول التوفيق بينهما، فيقول من الجهة الواحدة أن طبيعة الفكر تقتضي المطلق إذ أن الفعل الأساسي للفكر هو الحكم، ولا قيمة للحكم إلا إذا افترضنا فكرا أكمل من فكرنا، حاصل على موضوع الحكم ومنزها عن التساؤل والشك اللذان يستدعيان الحكم، فلا حقيقة إلا إذا كان هناك "أنا" واحد يتضمن كل فكرة وكل موضوع، ويقول من جهة أخرى أن مذهب المطلق يعتمد على مقتضيات العقل هذه لكي تبكر يقين الحياة العملية، فالمطلق هو كل ناقص يتكامل على الدوام بأن يترجم عن ذاته بأفراد يصنع كل منهم مصيره بحرية، فحياة هذا الأنا المطلق قائمة على معرفة الأفراد الذين يحققونه على التوالي وهذا يعني أن " رويس" يؤله للمجتمع، ثم يجعل منه موضوع دين يفرض على كل فرد الإخلاص التام للجماعة، مع محاولته الإبقاء على الاستقلال الفردي.[1] ومهما يكن في الأمر ومهما كان موقفنا من النسق الهيغلي، ومن تاريخانيته ومهما تغيرت المواقف من فلسفته، يبقى أنها اقترنت ببعض الموضوعات أو السمات الأساسية، وأصبحت الهيجلية لا تذكر بدونها، وليس أقلها ديناميكتيك السيد والعبد الوعي، وحيل العقل، والصراع من أجل إعتراف الآخرين[2]، وهو ما تمثله فكرة الجماعة الكبيرة عند "رويس".

كما استعمل "رويس"المنطق الهيجلي باعتباره العلم الذي يعالج المثال أو الفكرة في داخليتها المجردة، كوجود ولنفي الوجود وصيرورته، غير أن الفكرة ليست فقط وجودا في ذاته أي ثابتا، كذلك وجود لذاته، أي حركة الأخر والنقيض، وبالتالي تنتهي إلى نفي داخليتها المجردة، فتلتقي خارجيتها التي هي الطبيعة[3]، وهو مانجده عند "رويس" عندما استخدم المنطق للتوفيق بين الفلسفة والدين وكذا بين البرغماتية والمثالية. وإذا كانت البرغماتية أهم مايميز الوعي القومي الألماني، والتجريبية ميزت الوعي القومي الانجليزي، والتجربة الحية تيار دائم في الوعي القومي الفرنسي، والثورة الاجتماعية أهم سمات الوعي القومي الرويس. فان البرغماتية أصبحت شعار الوعي القومي الأمريكي، خاصة وان معظم مؤسسوها فلاسفة أمريكيون مثل تشارلز بيرس، وليم جيمس، جون ديوي، جورج هربارت مبد، موريس، لويس، وفيلسوف ألماني واحد هو"فايهنجر"، وبريطاني واحد هو "شيلر". فالبرغماتية عند"بيرس"[*]، منهج فلسفي لتأسيس المعاني والتصورات والاعتقادات، وان الأفكار التي يملكها الإنسان عن أي شيء هي الآثار الحسية طبقا للدلالة العملية، حيث رأى أن الاعتقاد هو توجيه للفعل، أما الشك فهو البحث من اجل الحصول على الاعتقاد، لذلك نجده جمع بين البرغماتية كنزعة عملية، والبحث

[1] يوسف كرم: تاريخ الفلسفة الحديثة، دار المعارف، ط5، ص 424.

[2] جورج زيناتي، الفلسفة في مسارها، دار الكتاب الجديد المتحدة، بنغازي، ليبيا، ط، 2013 ص218.

[3] المرجع نفسه، ص227.

[*] تشارلز بيرس(1839-1914)عالم طبيعي وفيلسوف امريكي، مؤسس البرغماتية، تخرج من جامعة هارفارد في 1859. ونشر أعماله في المنطق والميتافيزيقا في ثمان مجلدات بعنوان "أوراق مجموعة" ومن اهم اعمال له"تثبيت الاعتقاد"، "المنطق الكبير". "، انظر أحمد حنفي: مقدمة في علم الاستغراب، ص439.

المنطقي[1].الذي طوره متأثرا "بمورغان"و "جورج بول"، حيث كان المؤسس للبرغماتية في الوقت نفسه الذي كان رائد من رواد المنطق الحديث، حيث يقدم بيرس فيما بعد نصائح لرويس ينصحه فيها بدراسة المنطق لتوضيح نظريته المثالية البرغماتية، كما نجد أن "بيرس" كان متأثرا بكانط ومتحمسا "لدارون"، ومعارض ديكارت الذي وقع في رأيه ضحية المذهب الاسمي، وكان له أبلغ الأثر على باقي البرغماتيين مثل وليم جيمس وجون ديوي وجوزايا رويس لذا يعتبر أكثر البرغماتيين اتجاها نحو الفلسفة والمنطق والميتافيزيقا.

كما نجد "وليم جيمس"* والذي يعتبر المؤسس الثاني للبرغماتية، إن لم نقل الأول وبيرس الثاني، لأن الخلاف بينهما حول مفهوم الحقيقة هو الذي دفع بيرس إلى البرغماتية، وتعرف فلسفته باسم"التجربة الجذرية"،حيث يرى أن جميع الخلافات الميتافيزيقية يمكن أن تحل، وأن تقل أهميتها عن طريق النتائج المترتبة عليها،أما النظريات العلمية فهي مجرد أدوات لتوجيه فعل المستقبل، وليست إجابات نهائية حول الطبيعة. ودفاع عن الاعتقاد وله آراء كثيرة في الدين، اتجه إلى المبدأ البرغماتي النفعي، بدلا من الفهم الموضوعي للحقيقة، انتهى إلى التصوف ونادي بتجربة راديكالية التي تعني الرد الذاتي للواقع وإلى التجربة الخالصة للشعور، وفي نظريته المحايدة وهو نفس التعبير الذي استعمله راسل فيما بعد، كما نجد أيضا "جون ديوي"، الذي حاول الجمع بين أراء بيرس وجيمس من خلال عرضه للبرغماتية كنظرية منطقية أخلاقية[2]، كما نجد أيضا الفيلسوف "جورج هربارت مبد"، والذي أقام علاقة بين الفرد وصياغة الفروض وتحققه من صدقها من ناحية وبين المجتمع من ناحية أخرى، رادا على اتهام البرغماتية بالفردية. ثم جمع "شارلز موريس" بين النظريات البرغماتية، خاصة التجريبية المنطقية والبرغماتية الاجتماعية عند "مبد"، وقام بتطوير منطق "بيرس" كم جمع "لويس"، بين البرغماتية والتصورية فكان برغماتيا منطقيا مثل "بيرس، مثل الذي كونه "رويس" من خلال التوفيق بين البرغماتية والمثالية باستعمال المنطق الذي أخذه من "بيرس" أيضا.

أما في ألمانيا فأسس"فايهنجر"، فلسفة الوهم، وهو نوع متطرف من البرغماتية أو الذرائعية، ترى أن المبادئ الرئيسية في العلوم الطبيعية والرياضيات والفلسفة والأخلاق والدين والقانون مجرد أوهام، وبالرغم من أن الحقائق الموضوعية تنقصها إلا أنها مفيدة للعمل، وهي نفس الفكرة التي عبر عنها كانط في قوله "قد يكون صحيحا عمليا ولا قيمة له في الواقع"[3]. أما في انجلترا، فقد جمع" شيلر"، بين البرغماتية والإنسانية، فأصبحت البرغماتية لديه نزعة عامة

[1] حسن حنفي: مقدمة في علم الاستغراب، مرجع سابق، ص 439.

*وليم جيمس (1842-1910) فيلسوف أمريكي وعالم نفس، خريج جامعة الطب"هارفارد" اصبح أستاذ للفلسفة ثم لعلم النفس، طور أفكار بيرس وعرضها في كتابه"البرغماتية"، ومن اهم اعماله "ارادة الاعتقاد"، "الاشكال المختلفة للتجربة الدينية"، "بعض مشكلات الفلسفة"، علم النفس"، "معنى الحقيقة". "، انظر أحمد حنفي: مقدمة في علم الاستغراب، ص439.

[2] حسن حنفي: مقدمة في علم الاستغراب، مرجع سابق، ص 441.

[3] المرجع نفسه، ص 443.

واتجاه نحو الفعل، فالحقيقة يخلقها الإنسان، والمعرفة ذاتية خالة. والنتائج الحسنة هي مقياس الحقيقة، أما العالم فهو خاضع لإرادة الإنسان، فالعالم هو مانصنعه، والواقع تجربة إنسانية، فكانت فلسفته اقرب إلى مثالية "فيشته" العملية منها إلى نفعية "ديوي"، كما أراد أيضا أن يطور المنطق الصوري من أجل صياغة منطق للتطبيق يخلق الإنسان المتميز أو السوبرمان كما هو الحال عند "نيتشه"، عارض الهيجلية المطلقة التي تبناها "برادلي"، وأعلن انه من أنصار برتاغوراس في تأكيده على أن الواقع والحقيقة من صنع الإنسان[1].كما أن ذرائعية"رويس"المطلقة تظهر من خلال التمييز بين عالم الوصف وعالم التقدير، كما تسمح "لرويس" أن يعطي حلا مبكرا لمسالة العلاقة بين الفكر والموضوع وهذا ما عالجه في كتابه العالم والفرد، فقد رمى "رويس" بالحلول الكلاسيكية للمسألة من واقعية وتصوف وعقلانية نقدية"الكنتية"، فقد لام الواقعي بأنه إذ كان الهدف مستقلا كليا عن الفكرة، فلا يمكن أن يكون معروفا، ولام الصوفي في وضعه الهدف في الفكر لأن الهدف يكون غير مفهوم كونه مفكرا به، ولأن الكانطية أو العقلية النقدية لقولها بأن الهدف هو إمكانية محضة للتجربة، لكن قد يكون غير موجود في النتيجة. ومن هنا ينطلق الحل الرويسي من التمييز في كل فكرة بين الدلالة الداخلية والدلالة الخارجية، وهكذا تقودنا الفكرة إلى هدف، وبالتالي فقي "القصدية"قصد و"مخطط عمل"لذا نجد أن أفكارنا الخاصة صحيحة، وصالحة بقدر ما تتطابق مع مقاصد المطلق، وبتعبير آخر مع الواقع، وهذا ما يسميه رويس "الذرائعية المطلقة"[2].

قائمة المراجع:

1. حسن حنفي: مقدمة في علم الاستغراب، الدار الفنية للنشر والتوزيع، القاهرة.
2. وليم كليرايت: تاريخ الفلسفة الحديثة، ت محمود سيد احمد، التنوير للطباعة والنشر بيروت لبنان، ط1 2010.
3. محمود فهمي زيدان: وليم جيمس، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، القاهرة، ط1، 2005.
4. جوزايا رويس الجانب الديني للفلسفة ت احمد الانصاري، المركز القومي للترجمة، القاهرة، ط1، 2009،
5. جيرار ديلودال: الفلسفة الأمريكية، ترجمة: جورج كتورة، إلهام الشعراني. الناشر، بيروت: 2009.
6. يوسف كرم: تاريخ الفلسفة الحديثة دار المعارف.
7. وليم كلي رايت: تاريخ الفلسفة الحديثة، تر: محمود سيد أحمد، دار التنوير للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، 2010.
8. جورج زيناتي، الفلسفة في مسارها، دار الكتاب الجديد المتحدة، بنغازي، ليبيا، ط، 2013.
9. *John Medermott. the basic writing if Josiah Royce (Chicago. The (92) imicrersity if Chicago press. 1969) vol 1*

[1] حسن حنفي: مقدمة في علم الاستغراب، مرجع سابق، ص 444.

[2] جيرار ديلودال: الفلسفة الأمريكية، مرجع سابق، ص 262.